بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

هذه سورة مريم التي اشتملت علىٰ بعض الأعاجيب الدالة علىٰ قدرة الله عز وجل، كقصة ولادة يحيىٰ عليه السلام، وقصة ولادة عيسىٰ عليه السلام. جاءت بعد سورة الكهف التي ذُكر فيها بعض الأمور العجيبة الدالة علىٰ ذلك أيضًا، كما سبق أن عرفنا.

وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ من الحروف المقطعة، التي يلفت الله بها أنظار المعاندين للنبي ﷺ، الممتنعين عن الإنصات للقرآن الكريم، كما هو في الرأي الذي نستريح إليه.

ثم يقول ربنا: هذا الذي نتلوه عليك من القرآن مشتمل علىٰ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ سبحانه، ﴿عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وذلك ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: دعا زكريا ربه ﴿نِدَآءً﴾ دعاءً ﴿خَفِيًّا﴾ سرًّا في جوف الليل؛ ليكون أقرب وأسرع للإجابة.

ولكن، بماذا نادىٰ ربه..؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾

أي: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ وقدم لدعائه بخمسة أشياء:

أولاها: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ ضعف ﴿ٱلْعَظْمُ﴾ جميعه ﴿مِّنِّي﴾ نظرًا لكبر سني.

ثانيها: ﴿و﴾ قد ﴿ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾ مني ﴿شَيْبًا﴾.

ثالثها: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ فيما سبق ﴿شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا، يعني: لم تخيب دعائي قبلًا، بل كنت تجيبه دائمًا، وأنا أريد أن أدعوك.

رابعها: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ الذين يلوني في النسب، ويأتون ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعدي، على الدين أن يضيعوه؛ لعدم وجود ولد لي يقوم بحفظه.

خامسها: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيمًا لم ولا تنجب، حتى يتحقق مطلبي.

ومع كل هذا: فإني أدعوك، ولا أيأس من رحمتك .﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً، يحقق ما يلي:

أولًا: ﴿يَرِثُنِي﴾ أي: يرث مني العلم، والصلاحية للنبوة.

ثانيًا: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ جدي، كذلك: العلم والنبوة.

ثالثًا: يكون مرضيًّا عندك ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

وقد أجاب الله دعاءه هذا قائلًا:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ قد أجبنا دعاءك، و ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ شرفناه بتسمية من عندنا ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم أحد بهذا الاسم من قبل. وفرح زكريا، وتعجب..

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ زكريا، وهو في غمرة الفرح: يا ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ كيف يكون ﴿لِي غُلَٰمٌ﴾ مع وجود هذين الأمرين:

الأول: ﴿كَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لم تلد قط.

الثاني: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ﴾ أنا ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ سنًا متقدمة.

وكلاهما يتنافيان مع الإنجاب.

وينبغي أن يلاحظ جيدًا: أنه لا ينكر قدرة الله علىٰ ذلك، بل يسأل عن الكيفية لزيادة الاطمئنان. وكانت الإجابة هكذا..

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: الأمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يتم خلق غلام منكما، وقد ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ﴾ وبالنسبة لقدرتي، سهل ﴿هَيِّنٌ﴾.

﴿و﴾ هل نسيت أني ﴿قَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بالمرة..؟

إذًا: سيكون لك هذا الغلام الذي رجوته.

ولمَّا سمع زكريا هذا الكلام، تاقت نفسه إلىٰ رؤية هذا الغلام الذي بشر به، ولذلك:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ زكريا: يا ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ﴾ علامة أعرف بها أن امرأتي حامل في هذا الغلام.

﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿ءَايَتُكَ﴾ هي ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحبس لسانك، فلا تستطيع التحدث مع الناس، مع سلامة لسانك ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ بأيامها ﴿سَوِيًّا﴾ كاملة. وحبس لسانه، وجاء موعد الصلاة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

يعني: ﴿فَخَرَجَ﴾ زكريا ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ وهو المسجد، الذي بشر فيه بالولد، والذي كانوا ينتظرون فتحه للصلاة فيه. ولم يكلمهم، فنظروا إليه.. !!

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: أشار إليهم بدون كلام ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ ربكم، وصلوا إليه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ في هذه الأيام الثلاثة، التي لن يتكلم فيها. وذلك: شكرًا لله تعالىٰ.

وعلم زكريا بحبس لسانه أن امرأته حامل، وولدت امرأته يحيىٰ، وبعد مدة من الزمن: قال تعالىٰ:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

يعني: قلنا له: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، واشتغل به، حفظًا، وفهمًا للمعاني، وعملًا بالأحكام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد. وأنعمنا عليه بستة أوصاف:

أولها: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي: الفقه في الدين، والقدرة علىٰ الفتوىٰ ﴿صَبِيًّا﴾ صغير السن.

ثانيها: آتيناه ﴿حَنَانًا﴾ رحمة للناس ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا.

ثالثها: آتيناه ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة وصلاحًا من عندنا.

رابعها: ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ مسلمًا، مقبلًا علىٰ الله، مطيعًا له.

خامسها: ﴿بَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ محسنًا لهما، قولًا وفعلًا.

سادسها: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبرًا ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيًا لربه.

هذا، وكان جزاؤه منا علىٰ هذه الأوصاف الجميلة أن قلنا:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أمان من الله ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان، ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من فتنة القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من أهوال يوم القيامة.

وبعد أن ذكر ربنا قصة خلق يحيىٰ عليه السلام من شيخين كبيرين، وهي من العجائب: ترقىٰ إلىٰ الأصعب، وهو قصة خلق عيسىٰ من غير أب. فقال عز وجل:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

أي: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن.. هذه القصة الأعجب، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وهي قصة ﴿مَرْيَمَ﴾ عليها السلام ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ اعتزلت ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وأخذت للعبادة ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ بعيدًا عنهم، في الجهة الشرقية من البيت. وجعلت بينها وبين أهلها حاجزًا ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ يحول بينها وبينهم.

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا﴾ حينئذ ﴿رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: ظهر لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ في صورة بشر تام الخلقة؛ لتأنس به، ولا تنفر منه، وتستمع إليه .**ولمَّا رأته: فزعت ثم..**

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ وأحتمي ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يرحم ضعفي، ويحميني منك، وابتعد عني ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تخاف الله.

فرد عليها. .﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لها.. لا تخافي، فلن أمسك بسوء، ولست بشرًا ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ وقد أرسلت ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ عن طريق النفخ بإذن الله ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهرًا من الذنوب، ناميًا على الخير. **فتعجبت من هذا الكلام.. ثم:**

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

يعني: ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ كما تقول، ﴿و﴾ واقع الحال أنه ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ عن طريق الزواج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تعاشر الرجال في الحرام. **وأجابها جبريل** عليه السلام:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام: الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يتم خلق غلام منك دون أن يمسسك بشر، وقد ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ﴾ وبالنسبة لقدرتي سهل ﴿هَيِّنٌ﴾.

﴿و﴾ كذلك ﴿لِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، ونجعله أيضًا ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن آمن به.

﴿وَكَانَ﴾ خلقه علىٰ هذا النحو من غير أب ﴿أَمْرًا﴾ من عندنا ﴿مَّقْضِيًّا﴾ به، لا يتخلف.

وتمَّ النفخ بإرادة الله تعالىٰ.. !! وتم الحمل، بقدرة الله سبحانه.. !! وأحست مريم عليها السلام بالحمل يتحرك في بطنها.

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: عيسىٰ عليه السلام، وهو في بطنها ﴿فَٱنتَبَذَتْ﴾ اعتزلت ﴿بِهِۦ﴾ من أهلها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: بعيدًا عنهم بعدًا كبيرًا.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: في أقصىٰ الوادي، وهو: (بيت لحم). وذلك: فرارًا من قومها، أن يعيروها بحملها من غير زوج. **وفي هذا المكان..**

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جاءها ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة، وألجأها ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتعتمد عليه. ثم كانت الولادة. ﴿قَالَتْ﴾ جزعًا من هذا الذي حدث، وخوفًا من الناس ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ الأمر ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لا يعرفني أحد.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

يعني: لمَّا ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] أنطق الله سبحانه بقدرته عيسىٰ وهو في المهد ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قائلًا لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ لما أصابك من آلام الولادة البدنية، ولا من آلام كلام الناس النفسية. وبعد أن واساها، أرشدها إلىٰ ما حولها من خيرات الله، حيث قال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهرًا صغيرًا، يجري به الماء بعد انقطاع.

ثم بين لها ماذا تفعل قائلًا: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

﴿فَكُلِى﴾ من هذا الرطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من هذا الماء ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فلا تخافي أحدًا، ولا تحزني لما حدث، ثم علمها كيف تواجه الناس قائلًا: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ وسألك عني، فلا تقولي شيئًا سوىٰ ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام في هذا الموضوع وغيره، وأبدأ من الآن ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بعد ذلك ﴿إِنسِيًّا﴾ ولكن لا أكف عن ذكر الله.

وأنِسَتْ مريم، واطمأنت نفسها، وقويت علىٰ ملاقاة قومها..

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

أي: ﴿فَأَتَتْ﴾ مريم ﴿بِهِۦ﴾ أي: بعيسىٰ من المكان البعيد، الذي كانت قد اعتزلت فيه ﴿قَوْمَهَا﴾ وهي ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾. فلما دخلت عليهم ومعها الصبي: بكوا، وحزنوا؛ لأنهم كانوا أهل بيت صالحين، ثم ﴿قَالُوا۟﴾ لها ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ فعلت وارتكبت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ منكرًا كبيرًا لماذا فعلت هذا ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ في العفة والصلاح..؟ إن هذا لا يليق بك، حيث ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ يفعل الفاحشة، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تطلب معاشرة الرجال في الحرام فكيف فعلت هذا..؟!!

ولم تنطق، ونظروا إليها نظرة اتهام، وعتاب وملامة..

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

يعني: ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: كلموا هذا.. فغضبوا منها، وتعجبوا لفعلها، و﴿قَالُوا﴾ لها: أتهزئين بنا كيف نكلم ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لا يتكلم أصلًا..؟

وهنا، نطق الذي في المهد:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم عن نفسه ثماني صفات، كلها تبرئ أمه من هذا الاتهام الذي وجهوه إليها. وهذه الصفات هي:

الأولى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فأثبت لنفسه العبودية، وبرَّأ ربه عن الولد.

الثانية: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: قضىٰ بإيتائي الكتاب وهو الإنجيل.

الثالثة: ﴿وَجَعَلَنِي﴾ فيما يأتي من الأيام ﴿نَبِيًّا﴾ أبلغ رسالته.

الرابعة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفاعًا للناس، وهاديًا لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

الخامسة: ﴿وَأَوْصَانِي﴾ أي: أمرني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

السادسة: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ محسنًا لها، قولًا وفعلًا.

السابعة: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا، ولا ﴿شَقِيًّا﴾ عاصيًا لربي.

الثامنة: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وهذا تأمين لي من الخوف في أحرج الأوقات، وأشد الأزمات.

وبهت القوم، وسكت الجميع، ومرت الأيام، ومضت السنون، واختلف الناس فيه.. !! فمن قائل: إنه عبد الله، كما قال عن نفسه. ومن قائل: إنه إله، أو ابن الله، كما سوَّل لهم الشيطان. ولذلك.. قال الله لمحمد ﷺ وقوله الحق فيه:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وصف بهذه الصفات المذكورة، هو ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عبد الله ورسوله، وليس كما قالت النصارىٰ: إنه إلٰه، أو إنه ابن الله. وهذا الذي نقول، هو ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ويشكون، ويختلفون، فاليهود يقولون: إنه ابن زنىٰ، والنصارى يقولون: إنه ابن الله، وثالث ثلاثة. والحقيقة أنه ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ حيث يستحيل عليه ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ذلك. بل هو الواحد الأحد، الذي ﴿إِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ثم يحكي ربنا علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام قوله لقومه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أنا عبده، وأنتم عبيده ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ووحدوه، ولا تشركوا معه أحدًا. و ﴿هَٰذَا﴾ الذي أقوله لكم ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فالتزموا به، وسيروا عليه، ولا تنحرفوا عنه.

ومع هذا الوضوح..

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ وهي الفرق في شأن عيسىٰ بعد ذلك ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ وهم النصارىٰ، فمن قائل عنه: إنه الله، ومن قائل: إنه ابن الله، ومن قائل: إنه ثالث ثلاثة، ومن قائل: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ﴾ وهلاك ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من هؤلاء ﴿مِن مَّشْهَدِ﴾ وأهوال ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ في هذا اليوم، بعد أن كانوا عميًّا عن رؤية الحق، وصمًّا عن سماعه في الدنيا.

﴿لَٰكِنِ﴾ ماذا يفيدهم السماع للهدى والبصر به يوم القيامة، إذ كان ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح. هذا هو أمر عيسىٰ عليه السلام العجيب: الذي يدعو إلىٰ الإيمان بقدرة الله، ووحدانيته، كل عاقل، ومنهم كفار عهدك يا محمد.

ولذلك: بلغهم به..

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خوّف كفار قومك ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وهو يوم القيامة، وما فيه من أهوال عظام ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لهم فيه بالعذاب، ﴿وَهُمْ﴾ اليوم في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عن هذا العذاب، ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به. إن عذابهم يسير علينا، حيث ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ كلها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ جميعهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ لا محالة، فنحاسبهم، ونجازيهم.

كذلك، وليتأكد الناس أن دعوة الرسل جميعًا هي العبودية لله..

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

أي: ﴿و﴾ كما ذكرت قصة عيسى لقومك ﴿اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن قصة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مع أبيه وقومه، حيث ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ مصدقًا لجميع الأنبياء وكتبهم ﴿نَبِيًّا﴾ في نفسه، وهو الجد الأعلىٰ لعيسىٰ، وجد العرب، وهو الذي تعترف به وبنبوته جميع الأمم. ولذلك: ففي قصته مع أبيه، تذكير لهم بدعوته، وتجديد لهم في دعوتهم إليها. وقصته هذه:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

يعني: حين ﴿قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مناديًا بكل أدب واحترام هذه الأمور الأربعة:

أولها: قال متسائلًا مشككًا: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ نفعًا أو ضرًا، من هذه الأصنام..؟

ثانيها: قال مخبرًا ومرغبًا ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ عن طريق الوحي في توحيد ربي وعبادته ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ منه شيئًا بخصوص عبادة هذه

الأصنام.. لذلك: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ وآمن بالله، واترك الأصنام ﴿أَهْدِكَ﴾ بهداية الله

﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ طريقًا مستقيمًا.

ثالثها: قال ناهيًا ومنبهًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بطاعتك له في عبادة هذه الأصنام؛ فتهلك؛ حيث ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فلا تطعه.

رابعها: قال مشفقًا ومحذرًا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ عليك ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بسبب شركك وعبادتك للأوثان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ وقريناً في النار. ثم ماذا قال أبوه..؟

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ معاندًا، وساخرًا ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِى﴾ التي أعبدها، وأتمسك بها، ولا أتخلىٰ عنها ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾..؟ ثم هدد قائلًا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عما تقول، وتدعو إليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالقول الفظيع والحجارة القاتلة.. فاحذرني ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وابتعد عني نهائيًا.

وهذا شأن الطغاة المعاندين الجاهلين: حيث يلجئون إلىٰ التهديد عندما يعجزون عن الحوار والنقاش.

ماذا فعل إبراهيم..؟ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

لم يفعل شيئًا سوىٰ أنه ﴿قَالَ﴾ لأبيه بكل أدب وعطف وحسن معاملة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ لا ينالك مني مكروه، حتىٰ ولو رجمتني، و ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أن يغفر ذنبك، وأن يهديك للإسلام؛ حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ كريمًا معي، مجيبًا دعائي. ثم قال: ﴿و﴾ ليس هذا فقط، بل ﴿أَعْتَزِلُكُمْ﴾ أترككم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأفارق بلدكم.

﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ وأعبده وأوحده في مكان آخر ﴿عَسَىٰٓ﴾ أي: وكلي رجاء ﴿أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ وعبادته ﴿شَقِيًّا﴾ مثل شقاوتكم بعبادة الأصنام.

واعتزلهم بالفعل، وهاجر من أرضهم..

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾ إبراهيم، وهاجر من بلادهم، وتركهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذهب إلىٰ بلاد الشام: أبدله الله مَن هو خير منهم. حيث يقول: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ﴾ ابن إسحٰق ﴿وَكُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا﴾ هو ﴿نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم جميعًا ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناءً حسنًا ﴿عَلِيًّا﴾ أي: في جميع الأمم، وكل أهل الأديان.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كما ذكرت قصة عيسى عبد الله ورسوله، وقصة إبراهيم الذي كان يدعو إلىٰ عبادة الله ﴿ٱذْكُرْ﴾ لقومك كذلك ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، قصة ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، وأخبر عنه المولىٰ هنا بخمسة أخبار هي:

الأول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله من الدنس والشرك.

الثاني: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدعو إلىٰ عبادة الله وتوحيده، مثل باقي المرسلين.

الثالث: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ﴾ جبل ﴿ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ وأوحينا إليه.

الرابع: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ منا، فكان ﴿نَجِيًّا﴾ يسمع كلامنا، ومناجاتنا له حين أوحينا إليه.

الخامس: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ وإنعاماً ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وزيرًا له، يشد أزره، ويشركه في أمره، ويعينه علىٰ ذكر ربه.

ثم يقول له ـ ﷺ ـ ربنا كذلك:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كما ذكرت قصص هؤلاء المرسلين، ودعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده ﴿ٱذْكُرْ﴾ كذلك، قصة إسماعيل عليه السلام. وأخبر عنه ربنا بأربعة أخبار.. هي:

الأول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ حيث لم يعد بشيء إلَّا وفَّى به.

الثاني: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدعو إلىٰ عبادة الله وتوحيده، مثل إخوانه المرسلين.

الثالث: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اهتمامًا بأهله، واعتناءً بهم.

الرابع: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ عنه.

ثم يقول ربنا معلمًا أمة محمد ﷺ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

يعني: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ كذلك ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ لقومك ﴿إِدْرِيسَ ۚ﴾ عليه السلام، حيث ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ مثل إبراهيم عليه السلام، ﴿و﴾ أيضًا ﴿رَفَعْنَٰهُ﴾ بالنبوة ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ومنزلة كبيرة.

وتعقيبًا علىٰ ذكر كل هؤلاء يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون، هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ **كما أنعم علىٰ إخوانهم** ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهم: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ عليه السلام، **وهو إدريس عليه السلام.**

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ عليه السلام في السفينة، **وهو إبراهيم عليه السلام ابن ابنه سام.**

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام، وهم إسماعيل، وإسحٰق، ويعقوب، عليهم السلام.

﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يعقوب عليه السلام، وهم موسىٰ، وهارون، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ، عليهم السلام.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ كذلك من غير مَن ذكرنا.. كل أولئك ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ لله ولعظمته ﴿وَبُكِيًّا﴾ من خشيته سبحانه.

وقد أجمع العلماء علىٰ شرعية السجود هنا، اقتداءً بهم عليهم السلام، وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ سورة مريم فسجد قال: هذا السجود، فأين البكاء، يعني: يعيب علىٰ نفسه عدم البكاء.

أما نحن.. فأين البكاء؟ بل.. أين السجود؟ بل.. أين القراءة؟ ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

وبعد أن وصف الله هؤلاء الأنبياء بصفات المدح؛ ترغيبًا لنا في التأسي والاقتداء بهم، ذكر بعدهم مَن هو على الضد من ذلك، تنفيرًا لنا من التأسي والاقتداء بهم.

فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾

يعني: ﴿فَخَلَفَ﴾ وجاء ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ سوء ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بإنكارها، أو عدم فعلها، فهدموا دينهم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وغرقوا في الملذات، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها. لهذا ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ أولئك جزاء شرهم ﴿غَيًّا﴾ خسارة، يوم القيامة. **لكن..**

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿مَن تَابَ﴾ عن كفره، ورجع إلىٰ ربه ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله ورسله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يرضي به ربه، ويسعد به عباده، ويصلح به بلاده.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من جزائهم بسبب ما عملوه قبل توبتهم.

ثم يصف ربنا تبارك وتعالىٰ هذه الجنات التي يدخلونها، فيقول جل جلاله:

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

هذه الجنات وصفها ربنا بعدة صفات:

الأولىٰ: أنها دار إقامة أبدية ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة.

الثانية: أنها وعد من الرحمٰن ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾ بها، وهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: غائبين عنها، لم يشاهدوها ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ متحققًا، لا يتخلف.

الثالثة: أنهم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ من الكلام ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ من الملائكة عليهم، أو من بعضهم علىٰ بعض.

الرابعة: أنهم ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: علىٰ مقدار طرفي النهار من الدنيا، إذْ لا ليل ولا نهار في الآخرة.

الخامسة: أنها ميراث الأتقياء ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ بطاعة الله تعالىٰ.

تأخر نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ أيامًا، فقال النبي ﷺ لجبريل: **«ما منعك أن تزورنا»** فأنزل الله تعالىٰ قوله الكريم علىٰ لسان جبريل عليه السلام:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

أي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ نحن الملائكة بشيء من الوحي ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لنا بذلك.

حيث إن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمور الدنيا، فهو المالك لكل شيء، المدبر لكل شيء إلىٰ قيام الساعة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسيًا لك بتأخير الوحي عنك، ولكن كل شيء عنده بمقدار.

هو سبحانه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يستحيل عليه النسيان.

إذن.. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي: أقبل علىٰ عبادته، ولا تحزن بإبطاء الوحي عنك، واستهزاء الكفرة بك، وعنادهم لك.. فإنه سبحانه: يراقبك، ويلطف بك في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر عليها، وعلىٰ أدائها تامة كاملة.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: شبيهًا، أو مثيلًا..؟ أبدًا.. أبدًا.. وما دام الأمر كذلك: فلابد من التسليم لأمره، والاشتغال بعبادته، والصبر علىٰ مشقاتها.

هذا.. ولمَّا أمر الله تعالىٰ بالعبادة والمصابرة عليها، فكأن كافرًا قال: هذه العبادة لا منفعة لها حيث لا بعث، ولا حساب.

ولذلك: حكىٰ الله إنكاره للبعث، قائلًا:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ مرة أخرى من القبر، كما يقول محمد، هذا لا يعقل، ولا يكون أبدًا.

ويرد الله عز وجل إنكاره هذا.. بقوله عز وجل:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ نسي، أو تغافل ﴿وَلَا يَذْكُرُ﴾ هذا ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ إذْ كان عدمًا ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فلم يستدل بالابتداء علىٰ الإعادة..؟

ثم يهدد ربُّ العزة هذا الكافر وأمثاله بقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ يعني: هؤلاء المنكرين للبعث، ﴿و﴾ نحشر معهم ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الذين كانوا يغرونهم بالكفر ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ جميعًا ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: باركين على ركبهم، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ فرقة منهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أكثرهم فجورًا وإجرامًا، وهم قادتهم في الضلال، ورؤساؤهم في الكفر، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أي: أولى وأحق بعذاب جهنم ﴿صِلِيًّا﴾ دخولًا، واحتراقًا، وخلودًا.. فندخله أولًا، ونضاعف عذابه.

ولمَّا تحدث ربنا جل ذكره عن جهنم ودخولها عقب عليه بقوله سبحانه:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

يعني: وما ﴿مِّنكُمْ﴾ يا بني آدم أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ وهي: جهنم ﴿كَانَ﴾ ذلك ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ سبحانه ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قضى به، لا يتركه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾ من البقاء والخلود فيها ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم، فلم يكفروا به، ولم يشركوا معه أحدًا، وآمنوا به، وأطاعوا رسله، وعملوا بشرعه.

﴿وَّنَذَرُ﴾ ونترك ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ باركين على ركبهم يعذبون فيها.

هذا، وإذا كان المولى جلت حكمته قد بين فريقًا من أهل النار، قد كفر بسبب إنكاره البعث؛ فهذا بيان لعلة أخرى من علل كفرهم وهي: الغرور بالدنيا ومتاعها الزائل.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتعرض ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الواضحة، الداعية للإيمان ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، وأنكروا البعث ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ انظروا لحالكم وحالنا، وقولوا لنا ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ منا ومنكم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ عيشة وسكنًا وزينة ومتاعًا ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجتمعًا وبيئة..؟ وبالطبع: فنحن ـ كما ترون ـ خير منكم مقامًا،

وأحسن منكم مجتمعًا. فكيف نكون علىٰ الباطل، وتكونون علىٰ الحق..؟ إن هذا لا يعقل إطلاقًا.

ويرد الله عليهم غرورهم، ويهدم لهم حجتهم بقوله سبحانه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

يعني: لا ينبغي أن يغتروا بالدنيا ومتاعها الزائل، ويكفروا بالله، فكم ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ودمرنا وعذبنا ﴿قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أهل عصر، كانوا ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ منهم وأكثر ﴿أَثَٰثًا﴾ متاعًا ﴿وَرِءْيًا﴾ ومنظرًا، ولو كان متاع الدنيا، وامتلاكه.. علامة علىٰ أن أصحابه علىٰ الحق، ما عذبناهم؛ فالأمر إذًا علىٰ غير ما تدعون، ويفهم الكثيرون.

ولذلك يأمر الله محمدًا ﷺ في وحي يتلىٰ ويعمل به إلىٰ يوم القيامة، أن يذكر سنة الله في التعامل مع الكافرين ومع المؤمنين كذلك، في صورة أخاذة. حيث يقول جل وعلا:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

المعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ لاهيًا، وعلىٰ الكفر معاندًا ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ فليمهله إمهالًا، ولا يعاجله بالعقوبة، ليزداد طغيانًا وعقوبة، ولا يظن أن هذا تكريم له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ جاء الوعد الحق، و ﴿رَأَوْا۟ مَا﴾ كانوا ﴿يُوعَدُونَ﴾ به ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، وفيها يدخلون جهنم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ ساعتها علمًا حقيقيًّا ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلًا وإقامة ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: أعوانًا يساعدونه، وأنصارًا يدفعون عنه العذاب، هم أو المؤمنون..؟

هذا، وكما أعد الله للظالمين؛ ليزدادوا عقوبة: يزيد المؤمنين هداية ومكافأة؛ حيث يقول سبحانه ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بالإيمان ﴿هُدًى﴾ ثباتًا، ويقينًا، وجزاءً حسنًا علىٰ هذا الهدىٰ.

ثم يقرر ربنا أن الأمر على خلاف ما يفهم الكفار، فيقول: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي الأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ وأهلها كذلك ﴿ثَوَابًا﴾ من أعمال الكفار ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مرجعًا إليها، حيث يرد أصحابها إلى ربهم، ويدخلون الجنة، وأما الكفار، فيردون إلى ربهم ويدخلون النار.

بعد أن انتهت قصة أولئك الذين قالوا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].. !! يقول لمحمد ﷺ أيضًا: أخبر بقصة هذا الكافر العجيبة كذلك.حيث يقول له متعجبًا منها:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

هذا الكافر يمثل نموذجًا من الناس يغترون بأموالهم وأولادهم، ويسخرون من قضية الإيمان بالبعث واليوم الآخر. وقد حدث فعلًا أن قال العاص بن وائل الكافر ساخرًا لخباب بن الأرت المؤمن، وهو يطالبه بدين له عليه: أنت تزعم أن هناك بعثًا وجزاءً، فإذا كان هذا اليوم حسب زعمك، فسيكون عندي أموال وأولاد مثلما هو عندي في الدنيا، وساعتها سأرد إليك مالك.

ويرد الله على هذا الكافر وأمثاله قوله، ويبطل زعمه قائلًا:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

والمعنى: ﴿أ﴾ يقول ذلك، لأنه ﴿طَّلَعَ﴾ على ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ فعرفه..؟ ﴿أَمِ﴾ يقول لك، لأنه ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بأن يؤتيه: ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ ؟ فضمن ذلك. ﴿كَلَّا ۚ﴾ لا هذا، ولا ذاك، هو مخطئ في كل ذلك. و﴿سَنَكْتُبُ﴾ عليه في صحائفه ﴿مَا يَقُولُ﴾ من سوء، واستهزاء، وكفر .﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ ونزيد له ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ كما زاد في الاستهزاء، والافتراء ﴿مَدًّا﴾.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ويتباهى به في الدنيا، من مال وولد، ونسلبه منه، ونعطيه لغيره في الآخرة، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ كما ولد فردًا، لا مال له، ولا ولد معه.

نلاحظ: أن الآيات السابقة أقامت الحجة على وجود اليوم الآخر،وأبطلت منطق في أن

الدنيا: هي الميزان، وأن الإكرام الدنيوي دلالة علىٰ الإكرام الأخروي، لو كانت هناك آخرة.. تأتي الآن آيات كريمة تنقض علىٰ المشركين موقفهم في اتخاذ آلهة من دون الله تعالىٰ. حيث يقول العزيز الحكيم:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

أي: اتخذ هؤلاء الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ وهي الأصنام، وغيرها مما يعبدون ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ في الدنيا، ونصيرًا من العذاب في الآخرة لو كانت هناك آخرة، وفيها عذاب لهم. لا، ليس الأمر كما يزعمون، ولا كما يودون:

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿كَلَّا ۚ﴾ لن يكونوا لهم عزًا، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ أي: هذه الآلهة، وينكرون عبادتهم ﴿وَيَكُونُونَ﴾ في ذات الوقت ﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يبخسونهم، لا عزًا يرفعونهم.

والعجيب أنهم خضعوا لشياطينهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

أي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ سلطنا ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ تغريهم بفعل المعاصي، و ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ وتدفعهم علىٰ فعلها ﴿أَزًّا﴾.

لا تهتم بهم، ولا تنشغل من أجلهم..

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يعني: ﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ بطلب نزول العذاب ﴿عَلَيْهِمْ ۖ﴾ ولا تحزن لعدم نزول العذاب سريعًا بهم.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أعمالهم للجزاء، وأنفاسهم في الدنيا ﴿عَدًّا﴾، ولكل أجل كتاب. فإذا جاء أجلهم، وآجال الناس جميعًا.. وجاءت الساعة، وقامت القيامة: ﴿يَوْمَ﴾ ها. .﴿نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بسبب إيمانهم وطاعاتهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ مكرمين، راكبين، منعمين .﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب كفرهم، وعصيانهم، وندفعهم رغمًا عنهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وعذابها ﴿وِرْدًا﴾ ماشين عطاشىٰ متعبين، مهانين ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ من غيرهم لهم، ولا منهم لبعضهم البعض، كما هو الحال عند المؤمنين ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ منهم قبل ذلك ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ فآمن قبل قيام الساعة، فهذا يُشفع له ويَشفعُ لغيره.

هذا، وتأتي آيات كريمة أخرى تنقض علىٰ المشركين دعواهم بأن الله يتخذ لنفسه من عباده ولدًا، قال عز وجل:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: المشركون وبعض اليهود، وبعض النصارى ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾.

ويرد الله عليهم قولهم هذا، حيث يقول لهم:

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

يعني: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ وقلتم ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾ منكرًا فظيعًا، تحدث من هوله أحداث جسام:

أولها: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن ﴿مِنْهُ﴾ إنكارًا له.

ثانيها: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تكاد تنخسف الأرض من هوله.

ثالثها: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تسقط الجبال قطعًا.

وكل ذلك بسبب ﴿أَن دَعَوْا۟﴾ أي: المشركون ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ ونسبوه إليه.

هذا، والرد عليهم بمنتهىٰ الإيجاز..

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

يعني: القول الفصل أنه ﴿وَمَا يَنْبَغِى﴾ وما يصلح ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما يقول هؤلاء وهؤلاء.

وذلك بسبب ما يقوله رب العزة جل وعلا:

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

والمراد من هذه الآيات: أنه ما من معبود لهم ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كالملائكة والناس ﴿إِلَّآ﴾ وهو ﴿ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ مطيعًا.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ الله بعلمه ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ بقدرته ﴿عَدًّا﴾ فهو محيط بهم.

﴿وَكُلُّهُمْ﴾ العابدون والمعبودون ﴿ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ بلا مال، ولا ولد، ولا معين، ولا مدافع. فكيف يكون الإله علىٰ هذا النحو، ويحتاج إلىٰ اتخاذ الولد كما يزعمون..؟

وبعد كل هذا، تأتيٰ الآيات بثلاثة أشياء وتنتهي هذه السورة:

الأول: البشارة للمؤمنين في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

يعني: سَيَجْعَلُ الله الود والمحبة في قلوب الصالحين، لهؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهي بشارة طيبة لهم.

الثاني: حكمة إنزال القرآن الكريم في قوله سبحانه:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

يعني: سهلنا القرآن، و ﴿يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ المؤمنين ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ العاملين، بأن لهم الجنة ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا﴾ معاندين ﴿لُّدًّا﴾ أشداء في الخصومة بالباطل، وتخوفهم بأن لهم عذاب جهنم.

obeikandl.com

الثالث: التهديد والتخويف للكافرين في قوله تعالىٰ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

يعني: لقد ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أهل قرون كثيرة ﴿هَلْ﴾ تجد و﴿تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ بقي؟ ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتًا خفيًّا؟ لا.. لا هذا ولا ذاك، حيث لم يبق منهم شخص يرىٰ، ولا صوت يسمع، إذْ كلهم هلكوا فليحذر هؤلاء، وكل كفار الدنيا، إلىٰ يوم القيامة.

* * *

obeikandl.com